تاريخ الأمم والملوك للطبري

بقلم الأستاذ محمد خليفة التونسي

أولا — المؤلف

طبرستان اقليم جنوبي بحر قزوين فى أواسط آسيا ينسب إليه من أبنائه كثير من نوابغ تراثنا على تنوع مجالاته ، ولكن إذا قيل « الطبرى » فحسب لم ينصرف الذهن إلى أحد منهم — على كثرتهم وجلالهم — غير الإمام الكبير أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى الذى ولد فى أمل (عامل) عاصمة طبرستان فنُسب إليها وكان مولده فى آخر سنة ٢٢٤ أو أول سنة ٢٢٥ ، واشتهر بما أغنى به تراثنا الإسلامى من ذخائره النفيسة وأهم ما حفظ لنا منها تفسيره وتاريخه الكبيران ، وبهما لم يزل وجيهاً بين علمائنا حتى الآن .

وأخباره الباقية لقلتها وتفرقها لا تكفى لتكوين قصة حياته أو سيرته biography وان أغنت فى رسم صورته الشخصية portrait وسنتوخى له هنا صورة مصغرة لضيق المقام .

ويبدو من كل هذه الأخبار كأنما نذره القدر منذ صباه ، بل خلق مولده ، لإداء رسالة دينية مقدسة فهيأه لها بمأثورات أسرته وبشمائله معاً ومكن عشقها منه ثم فرغه لها طول حياته ، فلم يعرف غيرها حتى ودعها مع الحياة فى شيخوخته بعد أن عمر نحو ست وثمانين سنة ، ولقد مضى القدر يعده لها باكراً حتى إذا أطاق حملها فى صباه ، حمله أياها وأعانه عليها ، وأنماها له مع نموه ، حتى نالت به ونال بها فى نهاية شوطهما معاً خير ما عندها وخير ما عنده .

وهذه الرسالة هى رسالة « العلم » بمعناه الواسع القديم فى العربية واليونانية ، أو رسالة « التعلم والتعليم » التى استغرقته ، واجتهد هو فى استغراقها فبلغ من ذلك غاية ما يبلغ وسع الإنسان ، وما لإنسان إلى استغراقها سبيل .

وننظر إلى أخبار حياته جملة أو نستقرئها تفصيلاً فلا نرى له عملا ولا خلقاً ولا نية ولا مسعى ولا هوى إلا وهو يمد إلى هذه الرسالة بعرق ينبض بدم الحياة ، ويعينها بكل ما فيه من أسباب القوة والتأصل والدوام ، فلو أردنا أن نصفه بكلمة واحدة وافية فى الدلالة عليها وعليه لكفانا أن ندعوه « الحوارى » وأنه لمصداق قوى لما أثر عن النبى

– عليه السلام – فى قوله « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل »

ولو أردنا أن نعرف من مثـال واحد كيف ينبغى أن يكون « الحوارى » خلقاً وسيرة أو « العالم » الذى قدر له أن يتلقى رسالة نبى وينهض بها بعده – لكان صاحبنا الطبرى مثالاً وافيـاً له ، بل هو أوفى « حواريه » من كثير بين من دعوا أو يدعون بحق « حواريين » .

وقد رحل عن مدينته آمل فى حداثته إلى غيرها من بلاد طبرستان طلباً للعـلم ، بعد أن أخـذ منها ما استطاعت أن تعطيه ، فطلب العلم فى الرى وغيرها من مدن طبرستان وقراها قبل رحلته إلى أقاليم أخرى ولم يكن منذ حداثته يكتفى بالتلقى عن شيخ واحد إذا أطاق التلقى عن شيخين ولو بهظته المشقة مادام يطيقها. ومن أخبار حداثته – يطلب علم التفسير والحديث والتاريخ مع طائفة مثله فى مدينة الرى – ماحكاه من أنهم كانوا يكتبون عن شيخها الكبير محمد بن حميد الرازى ، الذى يكثر النقل عنه فى تاريخه قال : « كنا نكتب . . . فيخرج إلينا فى الليل مرات ، ويسألنا عما كتبناه ، ويقرؤه علينا ... وكنا نمضى إلى أحمد بن حماد الدولابى – وكان فى قرية من قرى الرى بينها وبين الرى قطعة – ثم نعدو كالمجانين ، حتى نصـير إلى ابن حماد فنلحق بمجلسه »[1] وبهذا العشق لرسالته أقبل عليها منذ الحداثة ، مستهينا بالمشاق كسائر العشاق ، وان كلفته دلج الليل ذاهبا آيباً بين بلدين منقطعين يعدو هو وصحبه كالمجانين ويقال انه كتب عن ابن حميد فوق مائة الف حديث[2] .

ومن التوفيقات أن تدوم له معونة أبيه طول حياته ، فقد خلف له ضيعة كان رزقها يأتيه يسيرا ، فاغنته عن السعى لتحصيل رزقه أو التعويل على أحد فيه ، ومكنته من أدوات العلم ومن الرحلة إلى معاهده فى أمصار المشرق الإسلامية ، فأخذ ماوسعه من شيوخ آمل والرى ونحوهما فى وطنه طبرستان ، ثم شيوخ بغداد والكوفة والبصرة وواسط فى العراق ، وشيوخ دمشق وغيرها من بلاد السواحل والثغور فى الشام ، وشيوخ الفسطاط فى مصر ، ثم استقر فى بغداد منذ أواخر شبابه حتى مات ودفن فيها سنة ٣١٠ هـ . وهو مكفى المؤنة متفرغ للقراءة والإقراء أو الإملاء والتأليف احتساباً لوجه الله ، بعد أن كاد يستوعب كل علوم عصره الأصيلة القديمة والدخيلة المحدثة ، وكلها كانت مستبحرة قبله وفى أيامه .

ولقـد صار إمام عصره الذى كان من أحيا العصور فى تاريخنا ثقافة وحضارة ، وظهر علو امامته بين أعظم معاصريه حتى فى حياة جماعة من بقيـة شيوخه ومن فى طبقتهم سناً وعلماً وشهرة ، وشهد له أفضلهم بالتقدم ومن هؤلاء المبرد ، ومنهم شيخه فى الأدب والنحو أبو العبـاس ثعلب الذى شهد له بحذقه فى النحو وهو علمـه المبرز فيه ، قيل « وهـذا من أبى العباس كثير لأنه كان شديد النفس شرس الأخلاق وكان قليل الشهادة لأحد بالحذق فى علمه »[1]

ولقد بلغ فى عدة علوم شرعية وأدبية وكونية غاية مايبلغ المختص فى كل منها على حدة ، مع سعة اطلاعه على غيرها ، قال مواطنه وكاتب سيرته عبد العزيز ابن محمد الطبرى : « كان أبو جعفر قد نظـر فى المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون أبواب الحساب وفى الطب ، وأخذ منه قسطاً وافراً يدل عليه كلامه فى الوصايا ... وكان كالقارىء الذى لا يعرف إلا القرآن ، وكالمحدث الذى لا يعرف إلا الحديث ، وكالفقيه الذى كان لا يعرف إلا الفقه ، وكالحاسب

(١) ، (٢) ياقوت ١٨ – ٤٩ – ٥٠

(١) ياقوت ١٨ – ٦٠

الذى لا يعرف إلا الحساب ، وكان عالماً بالعبادات جامعاً للعلوم ، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلا على غيرها[1] .

وقال فى موضع آخر : « كان أبو جعفر من الفضل والذكاء والعلم والحفظ على ما لا يجهله أحد عرفه ، لجمعه من علوم الإسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحد غيره من هذه الأمة ، ولا ظهر من كتب المصنفين وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له » ثم تحدث بتبحره فى علوم القرآن والقراءات واختلاف الفقهاء وعلم اللغة والنحو والجدل والأخلاق وإحاطته بمأثورات شعر الجاهلية[2] . وقد وصفه غير هذا المؤرخ بمثل ذلك وبتبحره فى علوم أخرى كالجبر والمقابلة والطب ثم الفلسفة التى كان يحرص على ألا يعرف بها لأسبابه ، وهذه الشهادة بين كثير مثلها وكلها تجمع على فضله وتبريزه ، والإعجاب به[3] ، ولكن مواطنه المعجب — ككثير غيره — يقول هنا بقدر ، ويقدم الأدلة عليه ، من وراء ذلك كله كتبه التى تغنيه عن شهادات الشهود من أوليائه وأعدائه . وقليل ما بقى منها ومن أخباره ما يدل على أنه كان من أفذاذ الموسوعيين فى العالم إلى جانب حظه الواضح من فراهة العبقرية وصلابة الشخصية ، وحسبنا من تواليفه تاريخه وتفسيره وإن لم يكونا منفردين بينهما بالسعة والأمانة . وقصة تأليفهما أدل منهما على عظمة فضله ، فقد أراد أن يخرج كلاً منهما فى عشر أضعافه .

وتظهر فيه خلائق « الحوارى » . وسيرته كما تظهر فيه ملكاته الذهنية مما يحتاج إليه حوارى منها ، فيصفه مترجمه السابق « بالزهد والورع والخشوع والأمانة وتصفية الأعمال وصدق النية وحقائق الأفعال » ويقول فيه

(١) ياقوت ١٨ — ٦١ .
(٢) ١٨ — ٦٠ .
(٣) الكامل لابن الأثير ٦ — ١٧١ ، تاريخ بغداد للخطيب ٢ — ١٦٤ .

أيضاً « كان عازفاً عن الدنيا تاركاً لها ولأهلها يرفع نفسه عن التماسها »[1] وكان — كما ينبغى للحوارى — واضح البيان حاضر البديهة قوى العارضة عارفاً بأخلاق الناس أفراداً وجماعات ، متمكناً من فقه دينه ولغته ، بصيراً بالكلام وذوقه ، شجاعاً فى الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، فما راجت فى أيامه بدعة مخلة بالدين أو الأدب العام — عنده — إلا نهض للرد عليها ، ولا ظهر تنقيص لقدر أحد من صحابة النبى أو التابعين أو شيوخه إلا بادر بالإملاء والتأليف فى فضائله ، فألف مثلا فى الرد على داود الأصبهانى وناظره فغلبه فى بعض آراء « الظاهرية » وألف كتاب فضائل أبى بكر وعمر فى الرد على الروافض وألف كتاب فضائل على بن أبى طالب فى الرد على النواصب ، وأظهر فضائل التابعين وفضائل شيوخة فى كتابه « ذيل المذيل » للرد على من تناولهم بالإصغار وكان كأبناء النعمة الصلحاء الأقوياء الذين يملكونها ، ولا تملكهم ، قال مواطنه ومترجمه السابق « كان أبو جعفر ظريفاً فى ظاهره نظيفاً فى باطنه حسن العشرة لمجالسيه متفقداً لأحوال إخوانه ، مهذبا فى جميع أحواله جميل الأدب فى مأكله وملبسه وما يخصه من أحوال نفسه ، منبسطاً مع أخوانه حتى أنه ربما داعبهم أحسن مداعبة ، وربما جئ بين يديه بشئ من الفاكهة فيجرى فى ذلك المعنى بما لا يخرج من العلم والفقه حتى يكون كأجير جد وأحسن علم »[2]

وكذلك يحكى تلميذه ومترجمه الآخر العلامة ابن كامل القاضى فيصفه بحسن اختياره لطعامه واللطف فى تناوله ، مع العناية بملابسه اللينة ، وغرامه بالرياحين والأزهار[3] ، ومن آثار نعمته كذلك أنه

(١) ياقوت ١٨ - ٦٠ .
(٢) ياقوت ١٨ - ٨٦ .
(٣) ياقوت ١٨ - ٨٧ — ٩٢ .

كان يسد خلل إخوانه وتلاميذه ، ولا يقبل هدية حتى يكافئها بما هو أحسن منها ولو كانت من أمير أو وزير فإذا عجز عن مكافأتها ردها إلى مهديها مهما يكن قدره ، ولا يقبل أن يوزعها على أصحابه ولوطلب مهديها منـــه ذلك ، ولم يقصد منهُ مكافأتها بل احتسابها لله [1]

ولقد بدأ متفقهاً على مذهب الشافعي وكان من أعلم الناس بفقهه وفقه غيره ، وقد ألف فى الفقه المقارن كتابه اختلاف الفقهاء ، ثم استقل فى الفقه بمذهبه الخاص ، وتبعه عليه كثير من العلماء وألفوا فيه الكتب والرســـائل [2] ولكن مذهبه انقرض بانقراض أتباعه لا لضعفه بين المذاهب الفقهية ، وليس انفرداه بمذهبه هو الدليل الأوحـــد أو الأكبر على عظمة حظه من النظر والاستقلال بالرأى والجرأة فى الحق ، ومن الاجتهاد والأمانة ، بل يؤيد ذلك كثير من ترجيحاته بين الآراء الفقهية والتاريخيـــة والفلسفية ، فهو لم يكن « الحوارى » المقلد فى دعوته ، بل كان يوجه الدعوة وينصرها كما يهديه عقله وأمانته ومعرفته الواسعة بأصول دينه وبأحوال الناس والحياة .

وهو لم يكن مطبوعاً على قول الشعر ، وإن أثرت له أبيـــات حسان تنضح بأخلاقه وسيرته الحوارية أكثر مما تدل على ملكة فنية مطبوعة على الشعر ، ومن ذلك قوله :

« إذا أعسرت لم أعلم رفيقى
وأستغنى فيستغنى صديقى
حيـــائى حافظ لى ماء وجهى
ورفقى فى مطالبتى رفيقى
ولو أنى سمحب ببذل وجهى
لكنت إلى الغنى سهل الطريق »

(١) ياقوت ٨ — ٨٧ — ٩٢ .
(٢) ابن النديم ٣٢١ .

وقد امتحن فى ختام حياته بمظاهرة الحنابلة عليه لمخالفته إياهم فى بعض الآراء والأحاديث ، فاضطهدوه واعتدوا عليه وعلى داره ، ومنعوه الخروج منها والاتصال بطلاب علمه ، حتى مات عقب ذلك بعام ، فدفن ليلاً خوفاً من العامة » ، وقيل « لم يؤذن به أحد ، فاجتمع على جنازته من لا يحصى عددهم إلا الله ، وصلى على قبره عدة شهور ليلاً ونهاراً ، ورثاه خلق كثير من أهل العلم والأدب [1]

وهكذا ينبغى أن تكون حياة الحوارى محنة منذ البدء حتى الختام ، ومحنة بعد الختام .

وقد ألف عشرات من الكتب فى علوم مختلفة ، كثير منها فى آلاف الصفحات ، وقد بقى لنا من تواليفه تفسيره وتاريخه ، وخلاصة كتاب سماه « ذيل المذيل » فى تاريخ الصحـــابة والتابعين ، وجزء من كتابه « تهذيب الآثار » فى الحديث ، وجزء من كتاب « اختلاف الفقهاء . »

ثانيا — الكتاب

١ - بين الكتاب ومؤلفه

يستمد المؤرخ المطبوع نظرته الخاصة إلى جملة التاريخ وأجزائه من نظرته العامة إلى الكون كله . وهذه النظرة قائمة على شخصيته أو أخلاقه ومزاجه ومنزعه المفضل فى الحياة عن اختيار أو اضطرار . ولاشك أن لثقافته وبيئته وعصره آثارها فى نظرته العامة والخاصة ، ولكن هذه الآثار لا تظهر إلا من تأثيرها فى نفسه ومن خلالها أولا ثم تظهر بعد ذلك فى كل مايصدر عنه ومن ذلك نظرته التاريخية والكونية ، فالشخصية الإنسانية هى ملتقى الآثار من كل مايحيط بها ومن يحيط ، ومنها تصدر دوافع الأعمال والأقوال .

(١) تاريخ بغداد ٢ — ١٦٣ .

ولذلك تختلف نظرات الناس إلى التاريخ باختلاف أنماط شخصياتهم وخصائص كل نمط والفروق الفردية بين كل فرد وغيره فلايستوى فى النظرة التاريخية النظريون والعمليون ، ولا يستوى فيها الفنانون والفلاسفة والعلماء ونحوهم وإن كانوا جميعاً نظريين ، ولايستوى فيها أفراد كل طائفة من هؤلاء ولوكانوا على نهج واحد فى النظر لاختلافهم فى الأمزجة والأخلاق والملكات والسير ، أو لاختلافات أخرى تعود إلى تنوع العصور والبيئات والألوان الثقافية والحضارية الغالبة على كل منها ، وكلها مع موروثات الإنسان قوام شخصيته التى هى مورد معطيات الوجود له ، ومصدر ما يحدث منه .

وليست صورة الكون عند أى انسان إلا وفق ما تنطبع فى نفسه أو هى صورة نفسه التى تطبع بطابعها كل ماتتلقاه من الحياة والاحياء ، فاذا عرفنا كيف ينظر الإنسان إلى التاريخ مثلا عرفنا ما هو أوما طبيعته ، وإذا عرفناماهو عرفناكيف ينظر إلى التاريخ أوغيره .

وقد عرفنا فيماسبق أن صاحبنا الطبرى « حوارى » وأشرنا إلى خصائص الحوارية فى طبيعته وليس لنا أن ننتظر منه إلا الوفاء لطبيعته الحوارية فى نظرته إلى التاريخ وكذلك كان الرجل .

فهو فى تاريخه يؤرخ لخلق العالم بسماواته وأرضه ومن فيه فتلمح فى نظرته إلى العالم نظرة الحوارى أو رجل الدين الذى يتبصر حكمة الله وفضله فى إبداع خلقه وما دبر لمخلوقاته من أقدار ، ونظم لهم من سنن ، فتاريخ الكون ومن فيه مجال للعظة والعبرة ، وخلقه آية حول الله وطوله ، ولقد خلق الله فيه الإنس والجن لعبادته ، وخلق لهم السموات والأرض وما بينهما على وفق مصلحتهم كما اقتضت حكمته ونعمته .

وفهم الطبرى للزمان فهم حوارى كذلك ، فالزمان ساعات الليل والنهار ، ليعرف عباد الله من ذلك عدد السنين والحساب ، فيعبدوه وفق مواقيت معينة ، ويبتغوا من فضله نهارا ، ويسكنوا إلى الراحة ليلا ، وبذلك يستوجب الله عليهم شكره جزاء نعمته ، فمن شكر زاده ومن عصى عاقبه بذنبه أو عفا عنه بفضله والطبرى — كما ينبغى أن نتوقع — يحتج لكل ذلك بالآثار القرآنية ليدعم قلمه ببراهينه ويزداد يقينا إلى يقينه وهذه غاية وفاء الطبرى لحواريته فى تاريخه وفى سائر مؤلفاته ، وهى من أقوى الأدلة على أصالة هذه الطبيعة فيه ، وانطباع كل مايصدر عنه بخصائصها الحية القوية ، فالتاريخ عنده من العلوم الدينية ، والكون كله معبد وعابدون ، وإن كان فيهم أبرار وخطاة ، أو مطيعون وعصاة ، والله وراء كل شئ محيط ، وهو صاحب الأمر والخلق ، ليس كمثله شيء ، وهو الأول قبل كل أول ، والآخر قبل كل آخر ، وقد خلق الخلق وهو الغنى عنهم فضلا منه ونعمة وهو المدبر لهم وفق حكمته وكرمه وقدرته ، « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

وقد أراد أن يخرج الكتاب — وفق سعة علمه بموضوعه — فى ثلاثين ألف ورقة فحال طلابه دون ذلك ، فأخرجه فى ثلاثة آلاف ورقة ، تبلغ فى طبعتنا المصرية ٣٣٠٠ صفحة ، فى كل منها ٢٨ سطراً ، والسطر ١٦ كلمة ، وأجزاؤه ١١ جزءاً .

٢ـ محتويات الكتاب :

يبدأ الكتاب بخطبة (مقدمة) ، يليها تمهيد ، ثم التاريخ ، وهذا يشمل تاريخ الخلق منذ بدأ حتى سنة ٣٠٢ ، وهو شطران يفصل بينهما الهجرة النبوية ، وسنجمل فيما يلى كل قسم من أقسامه الأربعة ، ونهجه الخاص به .

(ا) الخطبة :

وهى تقع فى ثلاث صفحات ، وتبدأ باسم الله وحمده بما هو أهله من قدم وبقاء ووحدانية وقدرة ،

وتجرد عن المكان ولطف عن الادراك، ثم شكره على فضله والاقرار بوحدانيته ونبوة محمد عليه السلام وعبوديته لله الذى أرسله فنهض برسالته ، ثم شرح حكمة الخلق ، كما لخصناها حين وضحنا نظرة المؤلف التاريخية ودلالتها على طبيعته ، ثم إشارة إلى موضوع الكتاب وهو ذكر من انتهت إلى المؤلف أخبارهم منذ بدء الخلق من الرسل والملوك والخلفاء مع حملة من حوادث الأمور فى كل عصر منهم « إذ كان الاستقصاء فى ذلك يقصر عنه العمر ، وتطول به الكتب » ثم أشار المؤلف إلى أنه سيعهد لذلك بالكلام على ما هو أولى ، وهو الزمان « ما هو ، وكم قدر جميعه وابتداء أوله ، وانتهاء آخره ، وهل كان قبل خلق الله تعالى إياه شيء غيره ، وهل هو فان ، وهل بعد فنائه شيء غير وجه المسبح الخلاق[1] تعالى ذكره ، وما الذى كان قبل خلق الله إياه ، وما هو كائن بعد فنائه وانقضائه وكيف كان ابتداء خلق الله تعالى إياه ، وكيف يكون فناؤه ، والدلالة على أن لا قديم إلا الله... بوجيز من الدلالة غير طويل ، إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك ، بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضية وجمل من أخبارهم ... » .

ثم أشار إلى أنه سيتبع ذلك بتاريخ النبي وصحابته وتابعيه ومن بعدهم ... ومن حُمدت روايته أو رفضت وسبب ذلك ، ثم أشار إلى أنه أدى ما وصل إليه كما وصل ، لأن الأخبار تعرف بالنقل لا باستنباط الفكر والحجج العقلية ، ويبرأ من عهدة ما ينقله من خبر قد يستنكر أو يستبشع ، وأن العهدة فى ذلك على الرواة لا عليه على نحو ما قدمنا فى هذا آنفاً عن كلامنا على نظرته التاريخية ومنهج كتابه .

(١) هذا شطر مطلع قصيدة ، وهو

ليس شيء من الوجود بباق غير وجه المسبح الخلاق

ب - تمهيد فى الزمان وبدء الخلق

يقع التمهيد فى نحو خمسين صفحة وفيه يوضح الزمان ماهو فيعرفه بأنه ساعات الليل والنهار ، وأن من معانيه المدة الطويلة أو القصيرة ، ويحتج لهذه التعريفات بكلام العرب ، وهى تعريفات عالم فقيه لغوى لا تعريفات فيلسوف .

ثم يتكلم عن مقدار الزمان من بدئه إلى نهايته ويذكر الأقوال فيه ، فينقل بسنده عن ابن عباس تقديره بسبعة آلاف سنة ، فتقدير كعب الأحبار له بستة آلاف سنة ومن وافقه على ذلك ويتبعه بأقوال من يقدره تقديراً مبهما اعتماداً على قرب مبعث نبينا محمد — عليه السلام — من قيام الساعة معتمداً على أحاديث يرويها ، ونهجه هنا أنه يذكر الرأى ويروى طائفة من أقوال أصحابه بأسانيدها اليهم مهما يطل السند أو العنعنة ، ثم يذكر رأى اليهود فى قدر الزمان اعتماداً على توراتهم وأنهم يقدرونه من بدء الخلق حتى الهجرة النبوية باثنتين وأربعين وستمائة سنة وأربعة آلاف ، ويذكر أن اليونانية من النصارى يرون بطلان تقدير اليهود ويرفضونه ، وأنهم يقدرون هذه الفترة باثنتين وتسعين سنة وخمسة آلاف وعدة أشهر اعتماداً على التوراة التى فى أيديهم أيضاً ، والاختلاف دينى آت من اعتقاد كل من الطائفتين فى المسيح : أهو ابن مريم الذى ظهر فاتبعه النصارى ورفضه اليهود ، أم هو لم يأت بعد فاليهود ينتظرونه على ما يدعون . ثم يذكر رأى المجوس فى قدر هذه المدة منذ خلق جيومرت (الذى يزعمون أن آدم أبو البشر) حتى الهجرة النبوية ، وهم يقدرون هذه المدة بتسع وثلاثين ومائة سنة وثلاثة آلاف ، ثم يختم ذلك باختلاف الاخباريين فى قدر هذه المدة ، ولا يتعرض لرأى أهل الهند فيها كما تعرض له المسعودى فى « مروج الذهب » وهم يحسبون

مدة العالم بالدورات الكونية وتبلغ ملايين السنين »

ثم يذكر حدوث الزمان وأن له بدءاً ونهاية وأن وجود الله قبله وبعده دائم ، ويحتج لذلك بالنقل عن القرآن والعقل ، واحتجاجه فى الحالين احتجاج حوارى لاهوتى وليس باحتجاج فيلسوف مع اطلاعه على الفلسفة ، وغاية ما يقترب فيه من الفلسفة تفرقته بين وجود الله بغير زمان ووجود الخلق مع الزمان ،وأدلته أضعف من الأدلة القرآنية على ذلك ، وهو يقتصر من بينها على دليل الايجاد أو الخلق التى يسميه الأوروبيون (البرهان الكونى The cosmological argument وخلاصته « أن كل موجود يتوقف على غيره وهكذا فلا بد من سبب للموجودات بوجودها ولا يتوقف وجوده على غيره ، وهذا عند أرسطو هو برهان « المحرك الذى لا يتحرك »

ثم يذكر بدء الخلق وأن أوله القلم الذى كتب القدر ، ثم الغمام (وهو أشبه بما سمى « العماء » فى بعض ما نسب إلى النبى عليه السلام ، وما يسمى فى الفلسفة« الهيولى » أو القابلية) ثم يذكر ظهور مخلوقات أخرى : العرش والماء والريح وسائر السموات والأرض وما فيهن من الكائنات ومن بينها الجن والإنس ، ويبين اختلاف الأقوال فى اليوم الذى خلق فيه كل منها بين الأيام الستة ، ويبين مقدار اليوم معتمداً على القرآن الكريم الذى يشير إلى أن اليوم عند الله مقداره ألف سنة مما نعد ، وبذلك ينجو المؤلف من الانحصار الذى يقع فيه العامى حين يفهم اليوم بمعنى الليل والنهار ، ويفلت من الأشكال الذى يتورط فيه العامى حين يفهم ذلك ثم يجد أمامه أن الشمس أو الأرض لم تخلقا فى اليوم الأول أو الثانى بل بعد ذلك ، وبهما تعرف الأزمنة .

ثم يذكر سبب خلق الزمن ليلاً ونهاراً ، وما كان لأبليس — على بعض الأقوال — من ملك السماء الدنيا والأرض حتى كشف الله عن كبر إبليس بخلق آدم ففضح دعواه الربوبية ، ثم نزع منه مجده ، ويذكر تحدى الله الملائكة بآدم حين عارضوا خلقه اياه ، فامتحنه واياهم فافلح وخابوا ، ثم أذعنوا إلا إبليس ، ثم يذكر حياة آدم قبل خروجه إلى الأرض وبعده ، ومن هنا يبدأ التاريخ البشرى .

حـ ـ التاريخ البشرى حتى الهجرة

يبلغ هذا القسم نحو خمسمائة صفحة وهو يستوعب بقية الجزء الأول وجميع الجزء الثانى إلا خمسين صفحة وفيه يذكر المؤلف خروج آدم أين كان ، وما تزود به فى خروجه ، وما وقع فى عهده من احداث أهمها ما نسلته له حواء من بنين وبنات ، فيذكر عددهم وتزويجه هؤلاء بهؤلاء ليبقى النسل وتعمر الأرض ، ويذكر اختلاف الرواة فى ابنى آدم اللذين قتل أحدهما الآخر وسبب نزاعهما ، وزمنهما وهل هما ممن ولدت حواء لآدم أم هما من بنى اسرائيل .

ثم يذكر زعم الفرس فى آدم أبى البشر وأنه عندهم « جيومرت » — كما قدمنا — ويذكر آراء من يوافقهم ومن يخالفهم فى ذلك ، وفيما ينسبونه إليه من أعمال ويرجح رأى من يرى أن جيومرت هو جامر ابن يافث ابن نوح ، وأنه ملك طبرستان (موطن المؤلف) ثم فارس ثم اتسع ملكه وملك أبنائه فشمل بابل وسائر الأقاليم . ويحتج لذلك باتفاق العلماء على أبوة جيومرت للفرس وأن ملكه هو وأولاده لم يزل متصلاً حتى قتل يزدجرد آخر ملوكهم فى زمن عثمان بن عفان .

ثم يذكر ماقيل فى عدد ولد حواء لآدم ،وعدد الأنبياء من بنيه وأنهم أربعة وعشرون ومائة الف(١) منهم ثلاثة عشر وثلثمائة رسول ، ويختم القول فى آدم بوفاته ودفنه ، ثم تكاثر ذريته وانتشارهم فى الأرض شرقاً وغرباً ، وحوادثهم حتى أيام نوح ، فيفصل

(١) مما يلفت النظر فى كتابة الطبرى هذه الأرقام أنه يكتبها من اليسار إلى اليمين بالحروف .

الأقوال فى دعوته وعصيان قومه وصنعه السفينة وقصة الطوفان ومن نجا معه فى السفينة من حيوان الأرض وناسها ، وتناسل الخلق بعده من أبنائه الثلاثة سام وحام ويافث ، وخصائص كل منهم ، فهو الأب الثانى للبشر بعد آدم ، وكلهم حتى الآن من ولده الثلاثة فليس منهم إلا من هو سامى أو حامى أو يافثى كما يذكر قول المجوس فى إنكار الطوفان وينكره عليهم معتمداً على القرآن والحديث الشريف وأقوال العلماء (١ — ٩٧) .

وهنا يذكر « بدأ التاريخ على مذهب أهل الكتاب وغيرهم » فأهل الكتاب يؤرخون ببدء الخلق ثم خروج آدم ثم مبعث نوح فالطوفان وتفرق أبناء نوح ، ثم نار ابراهيم ثم مبعث يوسف إلى مبعث موسى إلى ملك داود وسليمان ثم مبعث عيسى ، وهذا عند المؤلف ينبغى أن يكون على تاريخ اليهود . وأما النصارى فتؤرخ بعهد الإسكندر وأما الفرس فى عهد المؤلف فكانت تؤرخ بعهد يزدجرد وأما المسلمون فيؤرخون بالهجرة النبوية ، وأما العرب قبل الإسلام فكانت قريش بينهم تؤرخ بعام الفيل وسائر العرب يؤرخون بأيامهم « وقائعهم الحربية » .

وهنا يقف المؤلف وقفة حاسمة فى تأريخه الحوادث كان لها نتائج خطيرة فى كتابه سنعرض لها فى ختام كلامنا على هذا القسم من كتابه . وحسبنا هنا الإشارة إلى أنه جعل التأريخ (التوقيت) الفارسى قبل الهجرة النبوية فى المحل الأول واتخذه نظاماً رئيسيا يقاس به غيره من التأريخات ويركب عليه ، ولا يقاس بتأريخ آخر حتى تأريخ اليهود ، والسبب فى إيثاره تأريخ الفرس على التأريخ « التوقيت » اليهودى أن الأول — كما أشار المؤلف — مرتبط بظهور المملكة الفارسية واتصال أحداثها ، فهو متصل منتظم واضح الأزمنة ، وليس الثانى كذلك ، ولهذا يجعله تابعاً للتأريخ الفارسى ، وإن كان يعول على التأريخ اليهودى حين يربط بين حوادثه الخاصة به فيما بين بعضها وبعض .

ومن هنا لا يكاد المؤلف يعرض لتأريخ ما بعد الطوفان حتى يظهر عنده تأريخ المملكة الفارسية ثم يزداد ظهوراً وانتظاماً مع توالى الأزمنة ، فبعد أن يذكر « جيومرت » — (آدم عند الفرس) كما قدمنا — نراه يذكر بعده « أوشهنج » الفارسى الذى قيل إنه ملك الأقاليم السبعة وأسس مدينة بابل ومدينة السوس ، وعند إشارته إلى حوادث بنى آدم من عهد « شيث » إلى أيام « يرد » بن مهلائيل بن قينان بن أنوس بن شيث بن آدم يذكر رأى بعض الفرس فى أن « أوشهنج » هو مهلائيل بن قينان حفيد شيث بن آدم ، ثم يذكر أنه ولد لأوشهنج ولد فلما صار ملكاً كان محمود السيرة وهو فيشداذ (ومعناه أول حاكم بالعدل)[1] وإليه تنسب الدولة الفيشداذية أقدم دول الفرس ، وبذلك يقرب المؤلف تأريخ اليهود المقدس إلى تأريخ الفرس الذى اتخذه أساساً .

والمؤلف فى تأريخه حريص على ذكر الحوادث المتعاصرة معاً ، ولو اختلفت موضوعاتها ، ولم تكن لإحداها صلة بالأخرى إلا المعاصرة التى هى أقوى صلة بينها عنده ، وهو على هذا النهج يجرى هنا ، فيذكر عصر ملك فارسى أو أكثر ويطيل فى سيرته ويتبعها بحوادث عصره فى الأمم الأخرى ، فاذا فرغ من ذلك ذكر عصر ملك فارسى آخر أو أكثر من ملك فيفعل مثل ذلك وهكذا ...

وكلما كان الملك أحدث كثرت الأخبار المتصلة بالأمم التى تجاور مملكته شرقاً وغرباً كالترك والعرب

---

(١) فى هذا الموضع ١ - ٨٤ يذكر الطبرى كلمة الفيشداذية ، ويفسر معناها هكذا بالعربية وفى مواضع أخرى يذكر كلمات فارسية ويفسرها بالعربية ١ - ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩ فهل كان يعرف الفارسية .

واليونان والروم ، وقد يتعرض لأخبار أهل الهند والصين ، وأما « التأريخ المقدس » فهو يلاحق التأريخ الفارسى خطوة فخطوة ظاهراً معه على ما عداه منذ أيام شيث بن آدم ، ثم نوح إلى مبعث المسيح عيسى ابن مريم ، وتشتت اليهود فى عهد الروم . ولهذا كان التأريخ المقدس لليهود وأسلافهم واضحاً بارزاً فيه وإن كان تابعاً فى توقيته للتأريخ الفارسى ، بل يبدو فى المبدأ كأن هذا التأريخ خادم للتاريخ المقدس .

فالمؤلف يذكر من ملوك الفرس «أوشهنج» وولده « فيشداذ » ثم يذكر قولا آخر هو أن الذى تلا أوشهنج هو « طهمورث » الذى ظهر فى عهده « يوراسب » ودعا إلى ملة الصابئين ، ثم جاء « جم » أو « جمشيذ » فقتل « طهمورث » وملك مكانه ، ثم ملك « بيوراسب » وهو الازدهاق الذى تسميه العرب الضحاك وكان ظالماً ويقال إنه « النمروذ » الجبار ، وقد قتله أفريدون وحكم مكانه ؛ وهنا يشير المؤلف إلى أنه ذكر هؤلاء ووضح سيرهم هنا لظهور نوح فى عصرهم على بعض الأقوال ، بل يقول بعض نسابة الفرس إن نوحاً هو أفريدون الذى قتل الضحاك ، كما قيل أن بينه وبين « جم » عشرة آباء ، وأن ملكه كان خمسمائة سنة ، كما قيل إن ظهور نوح حتى عهد ابراهيم كان فى عهد الضحاك ، ولذلك يذكر المؤلف الحوادث بين عهد نوح إلى إبراهيم خلال عهد هؤلاء الفرس ويقصها فى وفاء .

ثم يذكر ولايه « منوشهر » بعد أفريدون والنزاع بينه وبين العبريين ، ويشير إلى ولاته على اليمن من أهلها كالرائش وغيره ، كما يشير إلى ظهور موسى وقارون فى عهده ، ويفصل القول مسهباً فى تاريخ اليمن وتاريخ بنى اسرائيل على يد موسى ثم فتاه يوشع ابن نون على عهد « منوشهر » .

وهنا يذكر المؤلف اعتماده تاريخ الفرس أساساً فيقول « ذكر القائم ببابل من الفرس بعد « منوشهر » ، إذ كان التاريخ إنما تدرك صحته على سياق مدة أعمار ملوكهم ثم يذكر منهم « فراسياب » وإفساده بين البلاد والعباد ثم ظهور « زو » بن « طهماسب » وإصلاحه ما أفسد «فراسياب» وعمران البلاد الفارسية فى عهده ومعاونة « كرشاسب » له فى ذلك ثم ظهور « كيقباذ » بعده وهو أول الملوك « الكيانية » أو « الكيكية »[1] ويعقب ذلك بذكر ما يعاصر ذلك من حوادث بنى إسرائيل فيما بعد يوشع بن نون الذى مكنهم من الإستيلاء على جزء من فلسطين ، فبعده خضع بنو إسرائيل لحكم القضاة حتى ظهر شمويل (صمويل) فاضطروه إلى اختيار ملك فاختار لهم طالوت (شاول) وجاء بعده داود وابنه سليمان .

ثم يذكر بعض ملوك « الكيانية » الفرس ومنهم كيقاوس ، وكيخسرو وفى عهدهما انقسم بنو اسرائيل مملكتين ، ثم ذكر « لهراسب » وابنه « يشتاسب » من الفرس وغزو واليه بختنصر للعرب وبنى اسرائيل وتخريبه بيت المقدس ونقله اليهود إلى بابل[2] .

ثم يذكر بعد يشتاسب تملك حفيده أردشير بهمن ، الذى كان قورش واليه على بابل فرد السبى اليهود من بابل إلى بلادهم فى فلسطين ، ثم يذكر دارا الأكبر ودارا الأصغر الذى هزمه الإسكندر وقضى على مملكته ، وقسم بلاده بين عدة ولاة ليجأ كل إليه فى نزاع بعضهم بعضاً ومنذ ذلك ظهر من يسمون « ملوك الطوائف »[3] أو « الملوك الأشغانيين » وهم الدولة الفارسية الثالثة .

---

(١) هنا ينتهى الجزء الأول .

(٢) اسم معظم ملوكهم يبدأ بالمقطع « كى » وجمعه بالفارسية « كيان » فهم « الكيانية » أو « الكيكية » بتكرار المقطع « كى » .

(٣) لما انقسمت الأندلس دويلات بعد انتهاء حكم أبناء الداخل الأموى سمى ملوك هذه الدويلات « ملوك الطوائف » تشبيهاً لهم بملوك الفرس بعد فتح الإسكندر فارس .

فى عهد هؤلاء الملوك يذكر المؤلف ظهور سلطان الروم حتى ملكوا الشام ومصر ، وظهور ملوك العرب فى اليمن والحيرة والأنبار ولاة من قبل الفرس ، واضمحلال سلطان بنى إسرائيل حتى ملكهم هيرود تحت سلطان الروم وظهور المسيح عيسى وانتشار الرسل للتبشير بدينه ، وظهور الزباء وطسم وجديس وأصحاب الكهف ويونس بن متى وشمسون الجبار .

ثم يذكر ظهور الدولة الفارسية الرابعة والأخيرة « الدولة الساسانية » بقيام أردشير بن بابك الذى قضى على ملوك الطوائف ووحد المملكة واستمرت متحدة يليها منهم ملك بعد آخر حتى فتحت فى عهد عمر ابن الخطاب وقتل آخر ملوكها يزدجرد فى عهد عثمان بن عفان ، وتاريخ هذه الدولة أوضح من تواريخ الدول الفارسية الثلاث الماضية ، ويبدو المؤلف خلالها كأنه لا يؤرخ إلا له حقاً ، ويبدأ تاريخ اليهود فى الاختفاء ، وتظهر تواريخ أمم أخرى فى صورة أبرز ، وأهمها الترك والروم والعرب ومع تقدم الحوادث يحل تاريخ العرب فى الظهور محل التأريخ المقدس اليهودى والمؤلف يعدد هؤلاء الملوك الفرس وسيرهم وأحداث عصرهم فى بلادهم وما جاورها بالتفصيل ملكا فملكا ، منذ « اردشير » ، حتى يأتى ذكر بهرام جور » فيذكر تربية المنذر بن النعمان ملك الحيرة له بوصية أبيه ومساعدة المنذر وابنه النعمان لبهرام جور على استرداد ملك أبيه يزدجر من قبضة كسرى الذى انتهز فرصة وفاة يزدجرد وبعد ابنه وولى عهده عن بلاده ، واغتصب ملكه وقد عرف بهرام المنذر فضله فقدمه .

ثم يذكر عهد يزدجرد بن بهرام جور وابنه فيروز فيبين خلال ذلك ولاتهما من ملوك العرب على الحيرة واليمن ، واستعانة ملوك الفرس فى حروبهم بالعرب ضد الروم وأتباعهم من العرب أيضاً ، حتى إذا جاء عهد قباذ بن فيروز ، ذكر فتنة « مزدك » الشيوعية فى عهده ومن دخل فيها من العرب والفرس ، ثم قضاء أنوشروان بن قباذ على مزدك وطائفته وفتنته ، وأخبار اليمن فى عهد قباذ وأنوشروان ، ثم ولادة النبى عليه السلام فى عهد أنوشروان .

ثم يذكر ملوك الفرس بعد أنوشروان واضطراب أحوال المملكة الفارسية منذ عهد حفيده كسرى أبرويز حتى آخرهم يزدجرد القتيل فى عهد عثمان .

ثم يطيل فى ذكر نسب النبى وسيرته فى مكة منذ ولد حتى بعث ثم تبشيره بدعوته حتى هجرته وبذلك ينتهى هذا القسم من تاريخه الذى جعل فيه تأريخ الفرس أساساً للتاريخ البشرى .

وقد كان لتعويل المؤلف على تأريخ الفرس آثاره فى كتابه ، فقد أفاض فى ذكر أخبار الفرس إلى حد جعل هذا القسم من كتابه مصدراً من أكبر مصادر تاريخهم لا يستغنى عنه مؤرخ ولو ملأ خزانته بما عداه من الكتب والآثار ، وهو يعد حجة كبرى فى هذا الموضوع حتى لقد اعتمد عليه كل عارف به ممن كتب فى تاريخ الفرس وقد ترجم المستشرق « نولدكه » إلى الألمانية القسم الخاص بالدولة الساسانية ، كما عول عليه فى تاريخ الفرس أكبر ثقاته وهو المستشرق «براون» فى كتابه عن تاريخ الأدب الفارسى .

ولا يهون من خطر كتابه احتواؤه على جمل من الأخبار الأسطورية فى كثير من مواضعه ولاسيما كلامه على الممالك المعرقة فى القدم وأخصها الدولة الفيشدادية ، فهو يأتى فيها بما يذكرنا بأساطير البابليين حول نشأة الكون وصراع الآلهة وظهور « مردوخ » وقد كان من نتائج تعويل المؤلف على التوقيت الفارسى أنه نجا من الانحصار الذى حبس فيه اليهود تاريخهم وتاريخ العالم عن قصد وعن غير قصد ولا سيما حيث أدخلت السياسة والدين أصابعهما فى كتابة التاريخ على ماعرفوه ، فحصروا النبوة فى ابراهيم وبنيه مع أنهم

فى التوراة يعترفون ببعض الأنبياء أيام ابراهيم عليه السلام ، ثم انحصرت البركة فى ولده إسحاق دون اسماعيل ، ثم فى يعقوب بن اسحاق دون العيص بن إسحاق ، ويعقوب هو إسرائيل الجد الأكبر الخاص باليهود ، ثم زادت البركة انحصاراً فى سبط موسى حتى انحصر كل خير فى داود وذريته ليكون منهم المسيح الذى يأتى لإنقاذ إسرائيل وتمكينهم من تسخير العالم وأممه ليكون اليهود ملوكه وسادته إلى آخر الزمن .

نجا المؤلف من هذا الانحصار فتبين لنا أن الإسرائيليات فى آثارنا القديمة مع كثرتها لم تكن المرجع الأول أو الأعظم فى التاريخ القديم ، بل كانوا هم وغيرهم كعرب الجزيرة متتلمذين معاً على المعارف التاريخية فى الأمم التى سبقتهم فى الرقى كالبابليين والمصريين بل إن البابليين كانوا عرباً تعلم منهم اخوانهم عرب الجزيرة دون وساطة اليهود كما تعلم منهم اليهود .

ومكن ذلك الطبرى من أن يذكر الأنبياء الذين أهملهم اليهود عمداً ، ومنهم كثير بين عرب الجزيرة فى الجنوب والوسط والشمال ، كما أهملوا تاريخ الأمم التى ظهر فيها أولئك الأنبياء وغيرها من الأمم ، ومن هؤلاء « عاد » قوم « هود » فى الأحقاف ، و« ثمود » قوم « صالح » فى المدائن ، وقد بقيت أخبارهم بالرواية ، إذ حفظها عرب الجزيرة عن كثير من هؤلاء الأقوام ، ثم جاء ذكر بعضها فى القرآن ، وزاد أخبارهم توكيداً ما سجل منها فى كتب اليونان والروم ، فلم تكن الروايات الإسرائيلية هى المصدر الأكبر ولا الأول ولا الوحيد فى الروايات العربية عن الأمم القديمة ، بل كانوا تلاميذ كغيرهم من قبائل عرب الجزيرة ، وكانوا يأخذون عنهم كما يعطونهم على سواء ، ولم يكن عرب الجزيرة فى الجاهلية منقطعين عن العالم بل كانوا — عن طريق الرحلات للتجارة والغزو والتملك — ذوى صلات وثيقة بكل ما يحيط بهم من الأمم فى البلاد المجاورة حتى الهند والصين .

فإذا كان الطبرى فى التأريخ المقدس لليهود يجارى المنهج التوراتى كثيراً فيما يخص تأريخهم ، فهو يقسمه وفق منهجه للتأريخ الفارسى ، ولا يأخذ بمنهج التوراة إلا فى الأخبار التى تعرضت لها التوراة ، ثم هو لا يكتفى بمراجعهم بل إنه يورد حتى فى موضوعاتهم الخاصة أخباراً أخرى عن مصادر غير إسرائيلية وأهمها المصادر العربية ، وإذا كان الطبرى قد بنى كتابه على كتاب ابن إسحق فى المبتدأ والمغازى كما قال تلميذه ابن كامل ، فإن ابن إسحق فى المبتدأ لا يأخذ كل رواياته فى اليهود عن علمائهم الذين كان يدعوهم « أهل العلم الأول » بل كان يأخذ عن مصادر عربية كأستاذه الزهرى حتى فى تاريخ الاسرائيليين ، وما كان له نهج الطبرى فى أخذه بالتوقيت الفارسى قاعدة لتأريخ البشر ، ولا علمه بكل مصادره ولا سيما المصادر الفارسية ثم العربية ، وإذا كان تاريخ ابن إسحق قد ضاع ، فإن جملة صورته باقية فى سيرة ابن هشام إلا حظاً كبيراً من قسم المبتدأ حذفه ابن هشام كما أشار إلى ذلك وان كنا نجد بعض ما حذف قد نقل فى « أخبار مكة » للأزرقى كما نجده فى الطبرى .

د ـ تاريخ الإسلام منذ الهجرة حتى سنة ٣٠٢ هـ

هذا القسم أطول أقسام الكتاب وهو يستغرق أكثر من ثمانمائة وألفى صفحة ، هى الصفحات الخمسون فى آخر الجزء الثانى ثم صفحات الأجزاء التالية من الثالث حتى الحادى عشر ، وأساس توقيت هذا القسم هو التأريخ

الإسلامى بالهجرة النبوية على وفق السنوات الهجرية[1] فهو يذكر فى سنة ما وقع فيها من حوادث فاذا فرغ من أخبار سنة انتقل إلى غيرها ، ويبدؤها بقوله مثلا: ثم دخلت سنة كذا وفيها وقع كذا وكذا ، وحين يشير إلى حادثة يذكر روايات عدة فيها بأسانيدها مهما تطل وقد تتداخل الروايات فى الحادثة الواحدة فى السنة الواحدة إذا كان فى جزء منها أكثر من رواية ، فهو يذكر الرواية فى هذا الجزء ثم يذكر رواية أخرى أو أكثر فيه أيضاً ، فاذا استوفى روايات هذا الجزء ذكر روايات جزء آخر على هذا النحو ولو كانت بعض أسانيد الجزء الأول هى أسانيد الجزء التالى له ، ويبدأ روايات الأجزاء التالية بقوله مثلاً «عاد الحديث إلى رواية فلان » فترى رواية الراوى الواحد فى « أجزاء الحادثة الواحدة فى السنة الواحدة مختلطة برواية غيره فى هذه الأجزاء مع أنها وقعت داخل سنة واحدة[1].

وإذا وصل المؤلف إلى السنة العاشرة بعد فتح مكة ختم أحداث كل سنة بعدها حتى آخر الكتاب بذكر من حج بالناس فيها (أمير الحج) والولاة على الأمصار بالبلدان وذلك عقب الفتوح ثم انتشارها .

والطبرى يهتم فى هذا القسم كما اهتم فى ذلك بروايات غيره للحوادث ولايكتبها منشئاً أو ملخصاً بقلمه إلا أخباراً نادرة عن حوادث شاهدها فى آخر تاريخه الذى أوصله إلى سنة ٣٠٢ أى قبل وفاته بثمانى سنوات .

وبينما يعنى بالحوادث السياسية عند الحكام كثيراً تقل عنايته بدراسة مجتمعات الأمم التى يؤرخها وبتوضيح نظمها الإدارية والاقتصادية والزراعية وسائر أحوالها الاجتماعية التى تكشف خصائصها ، وهو لايبدى رأيه بالحكم على الأشخاص أو الأعمال ، أو يكشف عبر الحوادث التى يعرضها بل يكتفى بالنقل إلا نادراً ، كما أنه نادر الترجيح لرواية على رواية فيما ينقل ، ولهذا النهج مزاياه ولغيره أيضاً مزاياه ، وإنما يفضل نهج سواه على حسب وجهة القارئ ، وقارئ تاريخ الطبرى يجد فيه مادة ضخمة صالحة للحكم على الأشخاص والأعمال وكشف العبر من الحوادث بنفسه ولا يجد تحيزاً مذهبياً ولا عنصريا ولا حزبيا ولا سياسيا

وليست سنوياته أو أخبار سنواته متساوية ولا متقاربة فمن سنوياته ما تبلغ صفحة كما فى سنة ٢٩٥ وهى السنة التى ولى فيها المقتدر الخلافة ، وكما فى سنة ٣٠١ وسنة ٣٠٢ وهما ختام الكتاب وقد تبلغ نصف صفحة أو ربعها كما فى سنة ٢٩٧ وما تلاها حتى سنة ٣٠٠ وربما تزيد حتى تبلغ تسعين صفحة كما فى سنة ١١ التى تستغرق الثلث الأخير من الجزء الثالث ، وهى سنة وفاة النبى عليه السلام وتولية الصديق وحوادث الحرب التى سميت تغليباً « حروب الردة » وبدء الفتوح فى الشام والعراق على عهده ، ومثلها أخبار سنة ٣٦ فهى نحو تسعين صفحة .

وفى هذا القسم — ولا سيما سنويات القرن الأول — يكثر المؤلف من رواية الخطب والأشعار والرسائل والمناظرات والكلمات البليغة مما جعل كتابه جزءاً هاماً من تراثنا الأدبى كما هو جزء من تراثنا التاريخى ، وتأخذ هذه النصوص الأدبية فى الضعف والقلة كلما اقتربنا مع الزمن من عصر المؤلف حتى تتلاشى فى سنوياته الأخيرة ، مما يدل على ضعف أساليب الحكام الذين يعنى المؤلف بأخبارهم ، وأساليب المؤلفين الذين ينقل عنهم رواياته .

وقسم السنويات جميعاً يرتبط أساساً بتاريخ الحركة الإسلامية منذ الهجرة حتى ختام الكتاب سنة

---

(١) لم يخالف هذا النهج السنوى إلا فى فصل موضوعه « الكتابة من بدء الإسلام » ذكر فيه أسماء كتاب الخلفاء والولاة حتى عهد الرشيد العباسى ، ووعد بذكر بقية أسمائهم بعد الفراغ من تاريخ العباسيين (٧ - ١٩٨) .

٣٠٢ هـ وما عدا أخبار هذه الحركة فهو تابع لها ، داخل فى تاريخها بسبب منها . فهو يبدأ السنويات بسيرة النبى عليه السلام فى المدينة عقب الهجرة ، وإقامته المجتمع الإسلامى الجديد فيها ، ومغازيه أثناء ذلك حتى وفاته ، ثم يذكر سير الخلفاء الراشدين والفتوح فى عهدهم ، والخلافات فى المجتمع الإسلامى ولا يكتفى فى هذه الفتوح خلال هذا العهد وماتلاه بنقل أخبارها عمن استوطنوا هذه البلاد عقب الفتوح بل ينقل عن شيوخها وعن غيرهم من شيوخ البلاد الأخرى ، كما لا ينقل فى الخلافات روايات حزب بدون حزب بل ينقل من رواة الأحزاب جميعاً فى سماحة وأمانة إذا وثق بما عندهم من روايات ، ثم يذكر أخبار الأمويين ثم أخبار العباسيين حتى صدر عهد المقتدر ، فلا يتحامل على الأمويين لأنهم أعداء العباسيين ، ولا يجامل العباسيين أو يحابيهم ضد الأمويين أو العلويين لأنهم أصحاب الدولة فى أيامه فهو لا يتصل بالدولة ، ولا يحب أن يتصل بها ، بل هو حريص على أن يستقل بدينه ودنياه عن الحكومة والحكام . وهو ليس ناصبياً ولا شيعيا ولا متعصباً لعنصر على عنصر ولا لمذهب على مذهب ولا ممن يرضون الفتن أو يستمرءون الخلاف أو يقبلون الطعن فى خصم وان صرح بالخلاف والطعن إلا أنه يعلن قوله الحق بالحسنى أمام قوله الباطل مهما تكن العواقب ، فلا سكوت على الباطل الصريح ولكن بلا لدد ولا تجريح وتاريخه لم يكن محتاجاً إلى جهاد كثير من هذا القبيل إلا أمام من كادوا الإسلام وأهله فى حرب عدائية مكشوفة ، وهذه المواقف فى تاريخه قليلة .

ويؤخذ على هذا القسم أنه عنى بتاريخ الحركة الإسلامية فى المشرق ، وكاد يهمل المغرب إلا ما كان من أخبار فتوحه ، ولم يسد هذه الثغرة فى الكتاب أحد ممن وصلوه بكتبهم — التى يسمى كل منها (الصلة) أى صلة التاريخ الطبرى — حتى عريب بن سعد القرطبى مع أنه أندلسى (١) لا فى السنوات التى اشتركا فى تأريخ حوادثها ولا فى السنوات التى انفرد بها بعده (٢).

٣ — تقدير الكتاب وأثره

ليس فى كتب المؤرخين حتى اليوم ما يضارع هذا الكتاب فى موضوعه من حيث الأمانة والسعة والإحاطة بالوجهات المختلفة للروايات ورواتها ، فهو فى موضوعه عمدة المؤرخين فى قسميه القديم والإسلامى ، مع كل ما فيه من مآخذ ألمعنا إلى بعضها آنفاً ، فهو مرجع قيم لا يستغنى عنه فى موضوعه ولم يهمله فيه إلا من قصر عنه .

ولقد أشرنا فى ختام كلامنا على القسم الخاص بما قبل الهجرة إلى أنه مرجع لا نظير له فى تاريخ الفرس الأقدمين من أبعد عصورهم الغامضة حتى أحدثها فلا غنى لمن يؤرخونه عنه ، ولقد عول عليه كل عارف به فيمن كتبوا فى تاريخهم من القدماء والمحدثين شرقيين وغربيين ، وزاد فى تقديره عند الغربيين نظرهم إلى الفرس نظر الأبناء إلى الآباء فى أرومتهم الآرية ، واعتدادهم بهذه الأرومة فى الصراع العنصرى وبخاصة فى القرون الأخيرة التى كثر فيها بينهم البحث عن الأصول البشرية وتسلموا قيادة العالم وطمعوا فى تسخير سائر الأمم لمصالحهم القومية .

---

(١) كان عريب كاتباً للحكم الثانى أحد أمراء الأندلس الأمويين من أبناء عبد الرحمن الداخل ، وكان حكم هذا الأمير من سنة ٣٥٠ إلى سنة ٣٦٦ وتوفى عريب سنة ٣٦٦ ، وقد طبع كتابه « الصلة » فى ٩٦ صفحة ملحقاً لتاريخ الطبرى فى الطبعة المصرية وألحق بهما « المنتخب من كتاب ذيل المذيل » أو « تاريخ الصحابة والتابعين » للطبرى أيضاً والمطبوع من « الصلة » لعريب يتضمن حوادث السنوات الثلاثين من سنة ٢٩١ إلى سنة ٣٢٠ هـ .

(٢) فى الكتاب فصل ليس منه وهو فى « سيرة عمر بن عبد العزيز » سنة ١٠١ هـ وقد تنبه فى مبدأ ذكره إلى أنه من غير كتاب أبى جعفر (٨ - ١٤٠) .

وعلى نحو قريب من ذلك اهتم به الفرس بعد الإسلام ، فما كادُوا يستحيون معالم قوميتهم الثقافية ، ومنها لغتهم وتاريخهم وآدابهم ، حتى عنوا بهذا الكتاب بعد تأليفه بنصف قرن ، فقام بترجمته إلى اللغة الفارسية الحديثة أحد أعلامهم النابهين وهو محمد ابن عبدالله البلعمى [1] الذى كان وزير نوح بن منصور من ملوك الدولة السامانية فى المشرق ، وتعد ترجمته لهذا الكتاب سنة ٣٥٢ هـ أقدم كتاب تاريخى باللغة الفارسية الحديثة [2].

ويذكر الأستاذ جرجى زيدان مقدار اهتمام أسلافنا به فيقول « تغالى القوم فى اقتناء هذا الكتاب ، حتى كان منه فى خزانة العزيز الفاطمى صاحب مصر عشرين نسخة ، منها واحدة بخط المؤلف ، وكان فى دار العلم بمصر ١٢٠ نسخة منه ، ولم يكن يتأتى إلا للملوك وأهل الثروة . ولما أظلم الشرق فى الأجيال الوسطى وخيم الجهل أحرقت فضاعت نسخة . فلما أرادوا طبعه فى ليدن لم يجدوا منه نسخه كاملة فى مكان ، فاضطروا إلى جمعها من عدة أماكن [3].

ونزيد عليه أن المستشرقين الذين جمعوه من عدة أماكن طائفة من علماء هولندا ساحوا فى البلاد الإسلامية وغيرها سنوات حتى حصلوا له نسخة كاملة طبعوها فى ثلاثة وعشرين جزءاً بلغت ٧٥٠٠ صفحة وكانت منها طبعتنا المصرية فى أحد عشر جزءاً بلغت ٣٣٠٠ صفحة ، وقد أشرنا من قبل إلى أن المستشرق « نولدكه » ترجم إلى اللغة الألمانية الجزء الخاص بتاريخ الساسانيين ، ونزيد هنا أن الكتاب كله ترجم من ترجمته الفارسية للبلعمى إلى الفرنسية بقلم الأستاذ زوتنبرج ، وترجم بعضه إلى اللاتينية كما ترجم كله إلى التركية . وقد عول عليه الأستاذ براون Browne ... فى كتابه الكبير « تاريخ الأدب الفارسى [1] وهو يعد فى تاريخ الفرس أكبر حجة بين المستشرقين فى العصر الحديث .

ولقد عول عليه أكثر من غيره كل من عرفه وكتب فى موضوعه من كبار مؤرخينا السابقين كما يظهر من اشاراتهم إليه ونقلهم عنه ، ونكتفى من أقوالهم بما ذكره المؤرخ الكبير « ابن الأثير » فى كتابه « الكامل » إذ يقول فى مقدمته مفاخراً به « ...ولكن أقول : إنى قد جمعت فى كتابى هذا ما لم يجتمع فى كتاب واحد ، ومن تأمله علم صحة ذلك ، فابتدأت بالتأريخ الكبير الذى صنفه الإمام أبو جعفر الطبرى ، إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه ، والمرجوع عند الاختلاف إليه ، فأخذت مافيه من جميع تراجمهم فلم أخل بترجمة واحدة منها ، وقد ذكر هو فى أكثر الحوادث روايات ذوات عدد ، كل رواية منها مثل التى قبلها أو أقل منها ، وربما زاد الشئ اليسير أو نقصه ، فقصدت أتم الروايات فنقلتها ، وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها ، وأودعت كل شئ مكانه ، فجاء جميع ما فى تلك الحادثة — على اختلاف طرقها — سياقاً واحداً على ما تراه :

« فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها ، وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبرى ما ليس فيه ، ووضعت كل شئ منها موضعه إلا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول

---

(١) كان أبوه وزيراً نابهاً فى عهد السامانيين ، وكذلك كان هو فى عهدهم بعده وللتفرقة بينهما يدعى الأب « البلعمى الكبير » ويدعى الابن « البلعمى الصغير » كما يدعوه المقدسى فى تاريخه بقريب من ذلك فى المعنى « أميرك بلعمى » أى الأمير البلعمى الصغير تاريخ المقدس ٣٣٨) .

(٢) انظر مادة « البلعمى » فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ٢ - ١٩٨ .

(١) A Literary History of Persia.

الله — صلى الله عليه وسلم — فانى لم أضف إلى مانقله أبو جعفر شيئاً إلا ما فيه زيادة بيان أو اسم إنسان أو ما لا يطعن على أحد منهم فى نقله وإنما اعتمدت عليه من بين المؤرخين إذ هو الإمام المتقن حقاً ، الجامع علما وصحة واعتقاداً وصدقاً (١)

وكما عنى — سابقونا بالنقل عنه وباختصاره على نحو ما فعل ابن الأثير ، عنوا بتكميله . فوصله كثير منهم بين المشارقة والمغاربة ، ومن هذه الصلات كتاب « الصلة » الذى ألفه عبدالله بن أحمد بن جعفر الفرغانى(٢) ، وقد نقل عنه ياقوت كما أشرنا قبل ، وكتاب الصلة الذى ألفه عريب بن سعد القرطبى فانتهى به إلى سنة ٣٦٥ ، وقد أشرنا إليه قبل ، وتلاه محمد بن عبد الملك الهمذانى بكتابه « الصلة » فانتهى به إلى سنة ٤٨٧ .

ولا نجد بعده كتاباً ذا قيمة خلال تاريخنا القديم والحديث يعرض لتاريخ الإسلام وأهله وصلاته بجيرانه فى القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة — وهذا بعض موضوع الكتاب — إلا وجدناه يعول عليه كأوثق مصدر له وأوسعه ، ولا وجدنا مؤرخاً قديماً أو حديثاً عرض لتقديره إلا زكاه وعظمه كيفما كانت مآخذه عليه ، وفى بعض هذا برهان واضح على قدر الكتاب بين القدماء والمحدثين فى أمم مختلفة ، وعلى أثره فى مؤلفاتهم التاريخية والأدبية ، وهذا حسبه فى عظمة القدر والأثر الذى يتجدد على اختلاف الأمصار والأعصار .

٤ — نماذج من الكتاب

قدمنا آنفاً ما يدل على أسلوب الطبرى من كلامه فى تاريخه وفى غير تاريخه ، ونذكر فيما يلى مثالين : أحدهما من قسمه الأول فى تاريخ الملوك الفرس قبل الهجرة ، وثانيهما من تاريخ للحركة الإسلامية بعد الهجرة .

١ — مولد النبى فى عهد كسرى أنوشروان عام الفيل

تعرض الطبرى لتملك أنوشروان على فارس وذكر ما وقع على عهده فى بلاده من حوادث ، وما وقع من حروب فى اليمن بين الأحباش ودفاع أهلها عنها واستعانتهم بالفرس لطرد الأحباش ، ومحاولة الأمير الحبشى أبرهة غزو الكعبة وهدمها بجيش يتقدمه فيل ورجوعه عنها مدحوراً بلا هزيمة أمام جيش ، قال : « وكان مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهد كسرى أنوشروان ، عام قدم أبرهة الأشرم أبو يكسوم مع الحبشة إلى مكة ، وساق فيه إليها الفيل يريد هدم بيت الله الحرام ، وذلك لمضى اثنتين وأربعين سنة من ملك كسرى أنوشروان وفى هذا العام كان يوم جبلة وهو يوم من أيام العرب مذكور .

ذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

حدثنا ابن المثنى قال : حدثنا وهب بن جرير قال : حدثنا أبى قال : سمعت محمد بن اسحاق يحدث عن المطلب بن عبدالله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده قال : ولدت أنا ورسول الله — صلعم — عام الفيل قال : وسأل عثمان بن عفان قباث بن أشيم ، أخا بنى عمرو بن ليث أأنت أكبر أم رسول الله — صلعم — قال : رسول الله — صلعم — أكبر منى ، وأنا أقدم منه فى الميلاد ، ورأيت خذق (١) الفيل أخضر محيلا بعده بعام ، ورأيت أمية بن عبدشمس شيخاً كبيراً يقوده عبده . فقال ابنه ياقباث : أنت أعلم وما تقول .

حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن اسحاق عن المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه

---

(١) مقدمة الكامل » ١ — ٥ .

(٢) ياقوت ١٨ — ٤٤ .

(١) فصلات الفيل .

عن جده قيس بن مخرمة قال : ولدت أنا ورسول الله — صلعم — عام الفيل فنحن لدان .

وحدثت عن هشام بن محمد قال : ولد عبدالله بن عبدالمطلب أبو رسول الله — صلعم — لأربع وعشرين مضت من سلطان كسرى أنوشروان ، وولد رسول الله — صلعم — فى سنة اثنتين وأربعين من سلطانه .

وحدثت عن يحيى بن معين قال : حدثنا حجاج ابن محمد قال : حدثنا يونس بن أبى اسحاق عن أبى اسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ولد رسول الله — صلعم — عام الفيل .

حدثت عن ابراهيم بن المنذر قال : حدثنا عبدالعزيز ابن أبى ثابت قال : حدثنا الزبير بن موسى عن أبى الحويرث قال : سمعت عبدالملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكنانى الليثى : ياقباث ، أنت أكبر أم رسول الله — صلعم — قال : رسول الله — صلعم — أكبر منى وأنا أسن منه ، ولد رسول الله — صلعم — عام الفيل ووقفت بى أمى على روث الفيل محيلا أعقله .

حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : حدثنى ابن إسحاق قال : ولد رسول الله — صلعم — يوم الإثنين عام الفيل لاثنتى عشر مضت من شهر ربيع الأول . وقيل إنه ولد — صلعم — فى الدار التى تعرف بدار ابن يوسف وقيل : إن رسول الله — صلعم — كان وهبها لعقيل ابن أبى طالب ، فلم تزل فى يد عقيل حتى توفى ، فباعها ولده من محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف فبنى داره التى يقال لها دار ابن يوسف ، وأدخل ذلك البيت فى الدار حتى أخرجته الخيزران فجعلته مسجداً يصلى فيها .

حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن اسحاق قال : زعمون — فيما يتحدث الناس ، والله أعلم — أن آمنة بنت وهب أم رسول الله — صلعم — كانت تحدث أنها أتيت لما حملت برسول الله — صلعم — فقيل لها انك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فاذا وقع بالأرض فقولى : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ثم سميه محمداً ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت منه قصور بصرى من أرض الشام ، فلما وضعته أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه . فأتاه فنظر إليه فحدثته بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه وما أمرت أن تسميه .

حدثنى محمد بن سنان القزاز قال : حدثنا يعقوب ابن محمد الزهى قال : حدثنا عبد العزيز بن عمران قال : حدثنى عبدالله بن عثمان بن أبى سليمان بن جبير ابن مطعم عن أبيه عن ابن أبى سويد الثقفى عن عثمان ابن أبى العاص قال : حدثتنى أمى أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب أم رسول الله — صلعم — وكان ذلك ليلا . قالت : فما شئ أنظر إليه من البيت إلا نور ، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو حتى أنى أقول لتقعن على» (١)

ومن هنا يظهر لنا استقصاء الطبرى فى الخبر بأكثر من رواية ، مع ذكرها بأسانيدها مهما يطل السند ولا يلخص الخبر بقلمه .

٢ — أخبار سنة ٩٢

هذه أخبار سنة كاملة اخترناها لقصرها نموذجاً مصغراً لمنهج الطبرى فى سنوياته ، إذ يذكر حوادث السنة ثم يذكر أمير الحج وسائر العمال على الأمصار فى هذه السنة .

قال : « ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين ، ذكر الأحداث التى كانت فيها » .

فمن ذلك غزوة سلمة بن عبد الملك وعمر بن الوليد أرض الروم ، ففتح على يدى سلمة حصون ثلاثة وجلا أهل سوسنة إل جوف أرض الروم .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ - ١٢٤ - ١٢٦ .

وفيها غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير الأندلس فى اثنى عشر ألفاً فلقى ملك الأندلس — زعم الواقدى أنه يقال له : أدرينوق[1] ، وكان رجلا من أهل أصبهان . قال : وهم ملوك عجم الأندلس — فزحف الأدرينوق فى سرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجه وقفازه وجميع الحلية التى يلبسها الملوك ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، حتى قتل الله الأدرينوق ، وفتح الأندلس سنة ٩٢ .

وفيها غزا — فيما زعم بعض أهل السيرة — قتيبة سجستان ، يريد رتبيل الأعظم والزابل ، فلما نزل سجستان تلقته رسل رتبيل بالصلح فقبل ذلك وانصرف ، واستعمل عليهم عبد ربه بن عبد الله ابن عمير الليثى .

وحج بالناس فى هذه السنة عمر بن عبد العزيز — وهو على المدينة — كذلك حدثنى أحمد بن ثابت عمن ذكره عن اسحاق بن عيسى عن أبى معشر . وكذلك قال الواقدى وغيره .

وكان عمال الأمصار فى هذه السنة عمالها فى السنة التى قبلها »[1] .

(١) للدريق .

(١) تاريخ الطبرى ٨ - ٨٢ .